الفصل الخامس عشر

إخبات القلب لله

الإخبات سكون القلب إلى ربه وطمأنينته إليه، وذله له وعكوفه عليه، وخشوعه وتواضعه بين يديه، فالمخبت رقيق القلب خاشع الفؤاد، دامع العين، متعلق بربه في كل حين وآن، لا يؤذي ولا يظلم، لا يجهل ويتجهَّم، بل إنه إذا رؤي ذكر الله، قال عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للربيع بن خثيم: لو رآك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأحبك، وما رأيتك قط إلا ذكرت المخبتين.

حقيقة الإخبات ومعناه

الإخبات لغة يطلق على المفازة لا نبات فيها أو على المطمئن من الأرض، وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل: نزل السهل وأنجد دخل في نجد ثم استعمل الإخبات في استعمال اللين والتواضع والخشوع لله والاطمئنان إليه يقال: أخبت إلى ربه أي اطمأن إليه[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الخبت في أصل اللغة المكان المنخفض من الأرض، وبه فسر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقتادة لفظ المخبتين وقالا: هم المتواضعون، وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقال الأخفش الخاشعون، وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون، وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم، وقال عمر بن أوس: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا، وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع والسكون إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولذلك عدي بإلى تضمينًا لمعنى الطمأنينة والإنابة والسكون إلى الله[(٢)]. وقال: هو الخضوع والتذلل لله عَزَّوَجَلَّ مع المحبة والتعظيم له[(٣)].

---

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٢/ ٣٨).

(٢) «تهذيب المدارج» ص [٢٧٩].

(٣) «المدارج» (٢/ ٦).

ثمرات الإخبات وفضائله

الإخبات أمان لصاحبه في الدنيا والآخرة، ونعيم عاجل يرى المؤمن متعته إذا عاش عليه ومن ثمراته ما يلي:

١- الإخبات سبيل الخلود في الجنة:

قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم أي: صدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته وذلوا لسلطانه وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه أولئك الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبًا إلا أدركوه، ولا خيرًا إلا سبقوا إليه[(١)].

فالمؤمنون المخبتون في الجنة خالدون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم في الغرفات آمنون، وإلى وجه ربهم ينظرون فنعم ما حصلوا، وبالعظمة الثواب الذي نالوا!

٢- المخبتون جديرون ببشارة الله لهم:

الله جَلَّ جَلَالُهُ أمر رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يبشر عباد الله المخبتين بشارة عامة بالخير العاجل والآجل في الدنيا والآخرة يقول ربنا جل وعلا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]. قال الثوري: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين الراضين

(١) «تفسير السعدي» ص [٤٢٦].

بقضاء الله المستسلمين له، وأحسن ما يفسر به ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: خافت منه قلوبهم ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أي: من المصائب ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله[١].

٣- الإخبات يعصم من الشهوات:

من امتلأ قلبه بالإخبات لله لم تذله شهوة ولم تتحكم فيه نزوة، بل إن ذلك الإخبات يحرق مواضع الشهوات ويبرد حرارتها، ويعصم من عنفوانها، لاسيما وقد عُلم أن من معاني الإخبات الخوف من الله ووجل القلب عند ذكره قال صاحب المنازل في أول درجة من درجات الإخبات أن تستغرق العصمة الشهوة قال ابن القيم: والعصمة هي الحماية والحفظ، والشهوة: الميل إلى مطالب النفس، والاستغراق للشيء الاحتواء عليه والإحاطة به يقول: تغلب عصمته شهوته وتقهرها وتستوفي جميع أجزائها[٢].

٤- الإخبات دعوة نبوية:

لقد دعا رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه عَزَّوَجَلَّ أن يجعله مخبتًا وذلك لأن الإخبات من حقائق العبودية العظيمة قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا، لك رهابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أواهًا منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي وثبت حجتي، وسدد لساني واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري**»[٣]. قال الحافظ أبو العلاء المباركفوري «**لك مخبتًا**» أي: خاضعًا خاشعًا متواضعًا من الإخبات[٤].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٥/ ٣١٤) باختصار، ط. التوفيقية..

(٢) «المدارج» (٢/ ٧).

(٣) رواه الترمذي برقم [٣٥٥١]، وابن ماجه برقم [٤٢٣٦]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [١٠٧٣].

(٤) «تحفة الأحوذي» (٩٦٧).

السكون إلى الله

من المعاني التي يدور عليها الإخبات السكون إلى الله تعالى وذلك بألا يشعر العبد بالأمان والسكينة والطمأنينة والثقة والسعادة واليقين إلا مع الله جَلَّجَلَالُهُ، فمن وجد الله ماذا فقد، ومن فقد الله ماذا وجد؟ قال بعض السلف: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والإقبال عليه والإعراض عما سواه.

وقال آخر: والله ما طابت الدنيا إلا بذكره، وما طابت الآخرة إلا بعفوه، وما طابت الجنة إلا برؤيته.

إن أسعد لحظات الحياة حين يطمئن قلب العبد بذكر الله ويستشعر قربه من ربه وقرب الله منه، وما دام قريبًا من ربه فهو ساكن آمن مطمئن سعيد، لسان حاله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ إنه لا يبالي بكيد أو مكر، ولا يلتفت إلى شهوة أو شبهة، ولا تستعبده أو تستميله نزوة، ولا تستخفه فتنة؛ لأنه معتصم بربه، مستأنس به، مطمئن إليه، مستشعر لمعيته، دائم الذكر والمراقبة له، ملتمس من ربه الحماية والكفاية، والرعاية والهداية، والصبر والثبات، إنه لا يؤثر فيه انصراف أكثر الناس عن الدين وغربة أهله بين الناس؛ لأنه يجد من رصيد الأنس بالله والبصيرة بدينه ما يغنيه عن الغرور بحال الكثرة الكاثرة التي آثرت الدنيا على الآخرة، وصار الدين في حياتهم هامشيًا قليل الأهمية والقدر عياذًا بالله من حالهم قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**»[1]. المخبت لا يحزنه غربة الدين ولا يؤلمه عداء الغثاء السفهاء لأنه مستأنس بربه مستعزٌّ بالذل إليه مستمد قوته من القوي العزيز جَلَّجَلَالُهُ قال الفضيل ابن عياض: اسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين واجتنب طرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين.

(١) «سنن ابن ماجه» [٣٩٧٦].

وقال بعض السلف: انفرادك في طريق طلبك دليلٌ على صدق الطلب، وهذا القول مبني إذا كان صاحبه على علم وبصيرة بطريق الحق وهدي السلف الأول.

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو خلت الطريق من المنافقين لاستوحشتم في الطريق.

ولله دَرُّ من قال:

أهم بشيء والليالي كأنها ... تطاردني عن كونها وأطارد

فريدٌ عن الخلان في كل بلدة ... إذا عظم المطلوب قل المساعدُ

قال أبو سليمان الداراني: لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي.

وهذا خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: كان مؤمنًا وحده وكان الناس جميعًا كفارًا[(١)]. وهذا يؤكده ما رواه البخاري أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لزوجته سارة: «**ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك**»[(٢)].

يقول ابن القيم عليه رحمة الله: كلما استوحشت في تفردك، فانظر إلى الرفيق السابق وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك[(٣)]. هكذا المؤمن في زمن الغربة الثاني ينبغي أن يكون؛ ليجعل أنسه بالله والإقبال على طاعته، وليواصل سيره إلى ربه، ولا يلتفت إلى المرجفين والمخذِّلين، إن المخبت يجد أمانه كل أمانه في ظل العبودية لربه والسكون إليه سبحانه وبحمده قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٦).

(٢) رواه البخاري برقم [٣٣٥٨].

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٩).

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح: ٤]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح: ١٨]. يقول ابن القيم عليه رحمة الله: وكان شيخ الإسلام إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة، وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الهجرة هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رأسيهما لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، وكيوم حنين حين ولوا مدبرين من شدة بأس الكفار لا يلوى أحد منهم على أحد، وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس[1]. فالمخبت ساكن القلب إذا هجمت عليه المخاوف، لا يقلق ولا يضطرب؛ لأنه يعلم أن ما أصابه ليس إلا بقدر الله وحكمته، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وحينئذٍ لا يجزع ولا يتبرم ولسان حاله: قضاء وقدر، ولسان حاله: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولسان حاله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ إن قلبه معمور بالثقة مملوء باليقين، مستلهم سكينته وطمأنينته من ربه جَلَّ جَلَالُهُ فلم يجزع وعلام يجزع، والمقدر هو ربه ومولاه جل وعلا؟!

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٥).

التواضع

والمعنى الثاني الذي يدور عليه الإخبات هو التواضع، وقد مدح الله هذا الخلق العظيم الكريم في عباد الرحمن الذين ارتضى منهم تلك الصفات وأرادها منهم فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. والهون هو اللين والرفق، والمشي الهون هو الذي ليس فه ضرب الأقدام ولا خفق النعال فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم وهذا الهوان ناشيء عن التواضع لله تعالى[١].

فهذا وصف لطريقة مشيهم أنها بسكينة وتواضع وقد قال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة على تضمنًا لمعنى هذه الأفعال؛ فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول[٢].

وفي صحيح مسلم عن عياض رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد**»[٣]. التواضع صفة عباد الله المتقين الذين عرفوا قدر أنفسهم وذلت نفوسهم لربهم ولم تنطو قلوبهم على كبر وتجبر عياذًا بالله، ولم يزك أحدهم نفسه إعجابًا بها، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]. والمخبت المتواضع يرفع الله منزلته بين الناس في الدنيا وتكون له الرفعة في الآخرة روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**»[٤]. والتواضع صفة أهل

(١) «التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر عاشور (١٩/ ٦٦)، المجلد الثامن، ط. دار سحنون.
(٢) «تهذيب المدارج» ص [٤٢٧].
(٣) رواه مسلم برقم [٢٨٦٥].
(٤) رواه مسلم برقم [٢٥٨٨].

الفضل والعلم والتقوى والإيمان وهذا هو سيد الخلق وصاحب المقام المحمود، والحوض المورود، واللواء المعقود يوم القيامة هذا إمام المتواضعين وسيد المتقين ﷺ سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله -يعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة[١]. ومن تواضعه ﷺ أنه كان يمر بالصبيان الصغار فيسلم عليهم كما في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مرَّ على صبيان فسلَّم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله[٢]. ومن تواضعه ﷺ أنه كان يجيب دعوة من دعاه ولو كان المدعو إليه قليلًا صغيرًا روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لو دُعيت إلى كراعٍ أو ذراع لقبلت ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت**»[٣]. ومن تواضعه ﷺ أنه كان لا يمتنع من قضاء مصالح ذوي المصالح والحاجات فمن كانت له حاجة قام معه رسول الله ﷺ حتى تنقضي كما في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت**»[٤]. يقول ابن القيم رحمه الله: كان النبي ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاثة، وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء، وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة،

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٧٦].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٢٤٧]، ومسلم برقم [٢١٦٨].

(٣) رواه البخاري برقم [٢٥٦٨].

(٤) رواه البخاري برقم [٦٠٧٢].

طلق الوجه، بسامًا، متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب رحيمًا بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم[١].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبرت بطنه كما في الصحيحين من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبر بطنه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته: أبينا أبينا[٢]

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من تواضع لله تخشعًا رفعه الله يوم القيامة، ومن تطاول تعظمًا وضعه الله يوم القيامة[٣].

وسُئل الحسن البصري عن التواضع فقال: التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلا[٤]. قال عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها، وولى أبو هريرة إمارة مرة فكان يحمل حُزمة الحطب على ظهره ويقول: طرقوا للأمير.

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [٤٢٨].
(٢) رواه البخاري برقم [٤١٠٤]، ومسلم برقم [١٨٠٣].
(٣) «الزهد» لأحمد ص [١٥٦].
(٤) «الإحياء» (٣/ ٣٤٢).

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز فاستضافوه، فنزل فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وقال: اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئًا غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه[١].

وقال الحسن: كنت مع ابن المبارك فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس فزحموه ودفعوه فلما خرج قال: ما العيش إلا هكذا يعني حيث لم نُعْرَف ولم نوقَّر.

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق وينقاد له، ويقبله ممن قاله، وقيل التواضع: ألا ترى لنفسك قيمة فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب، وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح ولين الجانب، وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان، والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء في النار[٢].

ولا تمشي فوق الأرض إلا تواضعًا ... فكم تحتها قوم هم منك أرفعُ
فإن كنت في عزٍّ وخير ومنعة ... فكم مات من قوم هم منك أمنعُ

يقول ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التواضع يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيده نبلًا، والتواضع لله عَزَّوَجَلَّ على ضربين: أحدهما- تواضع العبد لربه عندما يأتي من الطاعات غير معجبٍ بفعله ولا راءٍ له عنده حالة يوجب بها أسباب الولاية إلا أن كانت المولى جل وعز هو الذي يتفضل عليه بذلك، والتواضع الآخر- هو ازدراء المرء نفسه واستحقاره إياها عند ذكره ما قارف من المآثم حتى لا يرى أحدًا من العالم إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات وفوقه في الجنايات[٣].

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [٤٢٩].

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٨٠) والحسن المذكور ليس البصري.

(٣) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» ص [٦٣-٦٤] تحقيق عادل شوشة.

المخبتون متواضعون -منكسرون- خاشعون، إذا رؤي أحدهم ذكر الله، إنهم كالنسيم اللطيف لا يؤذون أحدًا ولا يظلمون أحدًا، ولا يصل إلى أحد منهم أبدًا ضر إلا إذا كان ذلك جهادًا في سبيل الله؛ فإنه على قدر تواضعهم لله تكون عزتهم وشدتهم على أعداء الله وأعداء دينه المخبتون كما يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وهمهم عند الثريا بل أعلى، إن عُرِفوا تنكروا، وإن رئيت لهم كرامة أنكروا، فالناس في غفلاتهم وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض وتفرح بهم أملاك السماء.

التواضع إخوتاه هو انكسار القلب وخفض الجناح والرحمة للخلق وهو الخضوع للحق والانقياد له، قيل لبعض العلماء: ما النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها قال: التواضع قيل: فما البلاء الذي لا يرحم عليه صاحبه قال: العجب.

وفي منثور الحكم: من دام تواضعه كثر صديقه.

وجدير بالتواضع من عرف حقيقة نفسه وضعفه وعجزه وحاجته وفقره وكل من سوى الله محتاج إليه مفتقر إليه ذليل إليه وعلى قدر علمه بتلك المعاني يكون تواضعه

حقيق بالتواضع من يموت ... ويكفي المرء في دنياه قوتُ
فما للمرء يصبح ذا هموم ... وحرص ليس يدركه النعوتُ
فيا هذا سترحل عن قريب ... إلى قوم كلامهم السكوتُ

فلله در أقوام تواضعوا لربهم، وتذللوا لخالقهم وفاطرهم، وسعوا بكل سبيل إلى ما يرضيه، وبذلوا في مرضاته ما يملكون فأسعدهم ربهم في الدنيا، وفي الآخرة سيكون نعيمهم أعظم وأكمل وأخلد وأبقى وأبر وأوفى ولله در من قال:

نالوا بذلك فرحة وسرورًا ... وسعوا فأصبح سعيهم مشكورًا
قوم أقاموا للإله نفوسهم ... فكسا وجوههم الوسيمة نورًا

تركوا النعيم وطلقوا لذاتهم ... زهدًا فعوضهم بذاك سرورًا
قاموا يناجون الإله بأدمعٍ ... تجري فتحكي لؤلؤًا منثورًا
ستروا وجوههم بأستار الدجى ... ليلًا فأضحت في النهار بدورًا
علموا بما عملوا فجاءوا بالذي ... وجدوا فأصبح حظهم موفورًا
وإذا بدا ليل سمعت أنينهم ... وشهدت وجدًا منهم وزفيرًا
تعبوا قليلًا في رضا محبوبهم ... فأراهم يوم المعاد كثيرًا
صبروا على بلواهمو فجزاهمو ... يوم القيامة جنة وحريرًا

درجات الإخبات

للإخبات ثلاث درجات سوف أحاول تقريبها وطرحها بصورة واضحة سهلة إن شاء الله، الدرجة الأولى- أن تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الإرادة الغفلة ويستهوي الطلب السلوة، الدرجة الثانية- ألا يوحش قلبه عارض ولا يقطع عليه الطريق فتنة، الدرجة الثالثة- أن يستوي عنده المدح والذم وتدوم لائمته لنفسه، تلك هي درجات الإخبات وإليكم بيانها مفسرة مفصلة والله المستعان وبه التوفيق والسداد.

الدرجة الأولى- لا شهوة، لا غفلة، لا سلوة:

خلاصة القول في هذه الدرجة أن تقهر وتغلب العصمة الشهوة وأن تقهر الإرادة الغفلة، وأن تقهر المحبة السلوة، فكل سائر في الطريق إلى الله عَزَّوَجَلَّ تعتريه الشهوات، تعرقله وتعوقه والمخبت يغالب شهوته ويدفعها حتى يقهرها ويملك هو قيادها فلا تتحكم فيه الشهوة وإنما يذللها هو ويصرفها في وجهتها الشرعية المباحة المتاحة.

والشهوات تصم وتعمي لا سيما إذا استكثر منها الإنسان وتابعها أما المخبت فشهوته تابعة لا متبوعة، مغلوبة لا غالبة وقد جاء التحذير الشديد في القرآن والسنة من فتنة الشهوات وضربت لذلك في القرآن الأمثال، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤]. وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**»(٢). وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر وجلسنا حوله فقال: «**إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**»(٣).

وكذلك أن تقهر إرادته غفلته؛ لأن يقظ الإرادة منتبه العزيمة يسعى بكل طاقاته نحو غايته التي هداه ربه إليها، لا تعميه الغفلة عنها، بل هو يغالب الغفلة ويقهرها بصدق إرادته، والغفلة مرض خطير شديد تهلك وتفتك بصاحبها لاسيما إذا استحكمت منه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨]. والغفلة تقود إلى اتباع الهوى كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]. الغفلة تعمي عن الآخرة، وتسكر القلب وتلهيه عنها، قال الله

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٧٤٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٣١٥٨]، ومسلم برقم [٢٩٦١].

(٣) رواه البخاري برقم [١٤٦٥]، ومسلم برقم [١٠٥٢].

تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣]. نعوذ بالله من قلب لاهٍ ساهٍ غافل.

إن خطورة الغفلة عظيمة ومن آثارها الخطيرة إيثار الدنيا على الآخرة والتثاقل إلى العاجلة ونسيان الدار الباقية الخالدة ومما يفزع هؤلاء الغافلين الذين آثروا الدنيا على الدين قول الله رب العالمين: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]. وهذا الغافل الأعمى، التائه السادر أضل من الأنعام، وأخس من البهائم وذلك حين يؤثر الظلمات على النور، والخبيث على الطيب، حين تعرض عليه الهداية فيعرض عنها، وحين يعرض عليه الإيمان فيأبى، ويختار العمى على الهدى، ولا يستجيب لداعي الإيمان، وهذا جدير بأن يحرق بنار جهنم وأن يذوق عذابها الأليم حيث اتبع هواه، وعصى أمر مولاه، وأضله الشيطان وخدعه، يقول ربنا جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. إن قلوبهم مغيبة، وجودها كعدمها فهي لا تعي شيئًا ولا تفقه وكذلك أعينهم لا تبصر الحق ولا تهتدي إليه، وآذانهم قد صمتها الغفلة وعطلت منفعتها الحقيقية، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]. يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وتستدرك إرادته غفلته، والإرادة عند القوم هي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله، والمريد هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه وأخذ في السفر إلى الله والدار الآخرة فإذا نزل في منزل الإخبات أحاطت إرادته بغفلته فاستدركها، واستدرك بها فارطها، وأما استهواء طلبه لسلوته، فهو قهر محبته

لسلوته وغلبتها له بحيث تهوي السلوة وتسقط كالذي يهوي في بئر وهذا علامة المحبة الصادقة أن تقهر فيه وارد السلوة وتدفنها في هوة لا تحيا بعدها أبدًا[١]. والسلوة معناها الحب، ومعنى الكلام أن تغلب محبة الله ورسوله في القلب كل محبة وتكون كل المحاب تابعة لها ونابعة منها، بحيث لا تبقى طاقة حب في القلب إلا بذلت في وجهتها الصحيحة وسبيلها القويم وهي محبة الله ورسوله، المخبت محب لربه متقرب إليه همته ما يرضي ربه، وغايته الزلفى إلى الرب الأعلى جل وعلا ولا يقدم حب أحدٍ أيًا كان على حب الله ورسوله فقلب المخبت خالص المحبة لله ورسوله، مملوء بها، متحرك بها لا تغيب عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك إذ هي وقوده الصافي، وغذاؤه العظيم الكافي الذي يدفعه إلى اقتحام الأهوال، ويرفعه في معارج القرب من ذي العزة والجلال سبحانه وبحمده.

الدرجة الثانية- ألا يوحش قلبه عارض ولا يقطع عليه الطريق فتنة:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والعارض هو المخالف كالذي يعترضك في طريقك فيجيئ في عرضها ومن أقوى هذه العوارض عارض وحشة التفرد فلا يلتفت إليه كما قال بعض الصادقين: انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب، وقال آخر: لا تستوحش في طريقك من قلة السالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين[٢] في طريق السائر إلى الله عَزَّوَجَلَّ عوائق وموانع تصده وتعرقله عن مواصلة السير ولا يزال الصادق يجوزها ويغالبها حتى يصل إلى مقصده. ومن هذه العوائق غربة المؤمن وتفرده بين الناس؛ فإن له شأنًا وللناس شأن هو غريب بينهم، لا ينافسهم على دنياهم وإنما همته متعلقة بالآخرة والاستعداد لها، والتزود ليوم القدوم على الله جَلَّجَلَالُهُ قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا يتنافس في عزها، له شأن وللناس شأن.

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [٢٨٠].

(٢) «تهذيب المدارج» ص [٢٨٠].

وكان عطاء السلمي يقول في دعائه: اللهم ارحم في الدنيا غربتي، وارحم في القبر وحشتي، وارحم موقفي غدًا بين يديك[١]. إن الجماهير العريضة من الناس مقبلة على الشهوات، متصرفة بالعادات والأعراف يقلد بعضهم بعضًا ويحاكي بعضهم بعضًا في أفراحهم ومناسباتهم وتقاليدهم يخضعون في أغلبها لحكم العادة الموروثة وحينما يريد المؤمن أن يقيم حياته على شرع الله وأمره يجد غربة بين الناس ومخالفة لهم بل واستنكارًا منهم، والمخبت من لا يبالي بذلك ولا يعنيه في شيء لأن قضيته الأولى والأخيرة الوصول إلى جنة الله وبلوغ رضاه جَلَّجَلَالُهُ.

قال: ولا يقطع عليه الطريق فتنة. قلت: نعم إن المخبت سائرٌ في طريقه واثق بالحق الذي هو عليه لا تؤثر فيه الفتن ولا تضعف سيره؛ لأنه مستعين بربه مستمد منه التوفيق والعصمة وبرغم شدة الفتن وكثرتها فإنها أبدًا لا تعوقه ولا تعطله ولا تعرقله؛ لأنه على بصيرة من دينه، عنده من رصيد الإيمان ما يحفظ عليه ثباته وإيمانه قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[٢].

وقد حث رسولنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على كثرة العمل الصالح وإتقانه؛ ليكون ذلك مادة حياة للقلب تمده بالقوة عند ورود الفتن، وتلهمه الثبات عند كثرتها وشدتها وتأمل هذا المشهد العظيم من النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: استيقظ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلة فزعًا يقول: «**سبحان الله! ما أنزل الله من الخزائن؟ وما أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات -يريد أزواجه- حتى يصلين؟ رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**»[٣]. قال الحافظ ابن حجر: فيه الندب إلى الدعاء والتضرع

(١) «جامع العلوم والحكم» ص [٦٥٦] ط. دار ابن رجب.
(٢) رواه مسلم برقم [١١٨]، والترمذي برقم [٢١٩٦].
(٣) رواه البخاري برقم [١١٥].

عند نزول الفتنة ولاسيما في الليل لرجاء وقت الإجابة لتكشف أو يسلم الداعي ومن دعا له[١]. والمخبت ملازم الدعاء والتضرع والاحتماء والاعتصام بالله جَلَّجَلَالُهُ؛ لأن ذلك التضرع الدائم والدعاء المستمر يستجلب حفظ الله لعبده وحمايته ونصرته عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: تكون فتنة لا ينجي منها إلا دعاء كدعاء الغريق[٢]. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن**»[٣].

يقول ابن القيم عليه رحمة الله: وأما الفتنة التي تقطع عليه الطريق فهي الواردات التي ترد على القلوب تمنعها من مطالعة الحق وقصده، فإذا تمكن من منزل الإخبات وصحة الإرادة والطلب لم يطمع فيه عارض الفتنة[٤]. إن منزلة الإخبات كالحصن الآمن الذي متى تحصن به العبد لم يطمع فيه عدوه، ويئس من إضلاله وفتنته؛ لأن حقيقة الإخبات والإيمان استغرقت قلبه وملأته فلا مكان فيه لفتنة.

الدرجة الثالثة- أن يستوي عنده المدح والذم وتدوم لائمته لنفسه:

يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: اعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات وتمكن فيها ارتفعت همته، وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم، فلا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمهم. هذا وصف من خرج عن حظ نفسه وصار قلبه مطرحًا لأشعة أنوار الأسماء والصفات، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه. والوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب وخلوه من الله وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان وطعم الصدق واليقين حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه[٥]. إن محبة المدح والثناء شيء مركوز في قلب الإنسان متأصل

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٥٥).
(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ٤٠).
(٣) رواه مسلم برقم [٢٨٦٧].
(٤) «تهذيب المدارج» ص [٢٨٠].
(٥) المصدر السابق ص [٢٨٠-٢٨١].

فيه ولكن المخبت ليس لنفسه عنه خط ولا قدر فلا يؤثر فيه مدح ولا يفتنه ثناء؛ لأنه عالم بحقيقة حاله ناظر إلى نقص ذاته وعيب نفسه وما فيها من آفات وكانت نفوس الصالحين عندهم أصغر من ذباب لا يرون لها فضلًا ولا علمًا ولا حالًا برغم أنهم كانوا هم أهل الفضل والخير والعلم والتقوى قال إبراهيم التيمي: ما عرضت عملي على قولي إلا خشيت أن أكون مكذبًا.

قال إبراهيم النخعي: لقد تكلمت ولو وجدت بدًا ما تكلمت، وإن زمانًا أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء.

وقال أيوب السختياني: إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل.

وكان داود الطائي يقول: لو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذل لنا لسان بذكر خير أبدًا.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أحب الصالحين ولست منهم وأبغض الطالحين وأنا شرٌّ منهم.

وقال خلف بن تميم: سمعت سفيان الثوري بمكة -وقد كثر الناس عليه- فسمعته يقول: ضاعت الأمة حين احتيج إلى مثلي.

والشق الثاني من هذه الدرجة: «وتدوم لائمته لنفسه» يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمراد بالنفس عند القوم ما كان معلولًا من أوصاف العبد مذمومًا من أخلاقه وأفعاله سواء كان ذلك كسبيًا أم خلقيًا فهو شديد اللائمة لها وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر ولا تصبر على السراء ولا على الضراء.

وقال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيرًا قالت: هلا زدت؟ وإن عملت شرًا قالت: ليتني لم أفعل. وقال الحسن: هي النفس

المؤمنة، إن المؤمن -والله- ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة كذا؟ ما أردت بكذا؟ ما أردت بكذا؟ وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها.

ثم يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عَزَّوَجَلَّ وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل فلابد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه. ومنهم من هو سهل عليه وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية وعقبات وشوك ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين ولاسيما أهل الليل المدلجين. فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات وإلا تعلقت بهم تلك الموانع وتشبثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السير، فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشيطان على قلة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه، فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قلته وضعف عزيمة السائر ونيته، فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع والمعصوم من عصمه الله.

وكلما رقي السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه فإذا قطعه وبلغ قمته انقلبت تلك المخاوف كلهن أمانًا وحينئذٍ يسهل السير وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها، ويرى طريقًا واسعًا آمنًا يفضي إلى المنازل والمناهل وعليه الأعلام وفيه الإقامات قد أعدت لركب الرحمن فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس، وثبات قلب والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1]. إنه لابد من تخطي هذه العقبة والتغلب على تلك النفس وترويضها على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وتذليلها لذلك فإنها كما قال الشيخ جبل عظيم وذلك لأنها تقف عقبة شديدة في طريق السير إلى الله حيث تتثاقل إلى شهواتها وتميل إلى مراداتها وتألف الدعة وتركن

(١) «تهذيب المدارج» ص [٢٨١-٢٨٢٥].

إلى الراحة وتؤثر بلوغ الأغراض الخسيسة العارضة على الأهداف النبيلة السامية فلابد من مقاومة لهذه الحاجات التي تقطع السير، وتمنع من الوصول وإن أول جريمة وقعت على ظهر هذه الأرض كانت بسبب النفس فمن أجلها قتل الأخ أخاه كما قال الله تعالى عن ابني آدم قابيل وهابيل: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المَائِدَة :٣٠]. والنفس تأمر بالسوء وتحرص عليه وتميل إليه في غالب أحوالها ولو ترك لها الحبل على غاربه؛ لكان الفساد العريض، والضياع الشديد تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه المجيد: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يُوسُف :٥٣]. فالنفس فيها شر وسوء بطبيعتها والمعصوم من ذلك من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ وتأمل كيف عُبِدَ العجل وكُفِرَ بالله في بني إسرائيل بسبب تسويل النفس وتزيينها للباطل حينما سولت للسامري نفسه وغر بني إسرائيل وأضلهم وأوقعهم في عبادة ذلك العجل الذي لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا فجاء موسى يعنفه ويوبخه على ما فعل وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [طه :٩٥-٩٦]. وفي خطبة الحاجة كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا**»(١).

ومن سعادة العبد أن يتجاوز عقبة النفس وألا يستجيب لصرخات المخذلين وتخويف المرجفين بل لينطلق في طريق سيره مستعينًا بربه لا يلتفت لمعوق ولا يبالي بمانع أو حاجز، فإنه متى قطع هذه المسافة وصبر على هذه المقاومة وقويت عزيمته وهمته في السير فإنه سوف يصل ولابد إلى بر الأمان، وساحل السعادة وحينئذٍ تقر عينه بقربه من ربه ويسهل عليه السير إليه جَلَّجَلَالُهُ تلك درجات الإخبات الثلاث وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلني وإياكم من عباده المخبتين وأن يرزقنا السكون والطمأنينة إليه وقرة العين بقربه سبحانه وبحمده.

---

(١) «سنن ابن ماجه».